

أمير مخول*

عكا وما بعد عكا

1 - ترجمة دقيقة لمفهوم الدولة اليهودية

خطت العنصرية الإسرائيلية خطوة تصعيدية نوعية شديدة الخطورة، إذ يمكن القول إن العنصرية المتراكمة في المجتمع الإسرائيلي سعت، بيديها، لتحقيق رؤيتها. ففي الحي الشرقي من عكا، وفي أثناء ليلة يوم الغفران اليهودي، وعلى مدار أيام، قامت الجموع العنصرية، بلغة الشارع الإسرائيلي، وكذلك بلغة الديموغرافيا وما يسمى "الخطر الديموغرافي" ونزع الشرعية وتجريم العمل السياسي والمدني العربي الفلسطيني في البلد، بترجمة معاني الدولة اليهودية، ودولة اليهود، ومخططات التهويد كافة.

والحق يقال، فإن ترجمة الشارع العنصري المذكورة كانت دقيقة و"منطقية" وتتلاءم والواقع الإسرائيلي، ذلك بأن التطهير العرقي المنظم كائن، تاريخياً، في صميم المشروع الصهيوني والواقع الإسرائيلي، وهو جوهرهما الذي لم يتغير يوماً. وبالتالي، فإنه في عكا نتاج الواقع الإسرائيلي.

إن ما جرى هو تحول الرأي العام العنصري من مواقف وسلوكيات وأصوات وممارسة تعبر عنها عادة استطلاعات الرأي العام، وتتمثل جزئياً في اعتداءات وممارسات فردية، إلى حركة عنصرية شعبية تحمل مشروعاً للتطهير العرقي في المدن الساحلية والمختلطة.

هذه الحركة تمارس مشروعها تحت نظر كل من المؤسسة الإسرائيلية الأمنية (الشرطة والاستخبارات العامة)، والمدنية على المستويين الوزاري والبلدي الرسميين، وبدعم وتسيويع إعلاميين واسعين جداً. وعملياً، فقد خطت العنصرية الإسرائيلية الشعبية في عكا مرحلة تم فيها إزالة كوابح رسمية أساسية أمام تحركها لتذكّرنا بالعصابات الصهيونية قبل سنة 1948، وبأن مثل هذه الممارسات ليس وراءنا، وبأن مواطنة دولة إسرائيل ليست امتيازاً أو حماية إلا للمجتمع اليهودي، وما غير ذلك هو وهم يريدون أن نسلك فيه، ونضفي عليه الشرعية.

وقد أنبت جس نبض المؤسسة الحاكمة أنها، في نهاية المطاف، وفي حال حدوث توتر بين النص القانوني وبين الهجمات العنصرية، مستعدة لتطويع القانون من أجل توفير الحماية للعنصريين، وأن نهجها، في الوقت نفسه، هو حجب هذه الحماية عن الضحية وتجريم دورها.

وفي حين تصرّف رئيس بلدية عكا كرئيس لليهود، وقام بمهاجمة الجماهير العربية في عكا، سعت الدولة لأن تصوّر ذاتها على أنها طرف ثالث محايد. وهذا، عملياً، ما عبر عنه رئيس إسرائيل شمعون بيرس، في خطابه ذي النزعة الوصائية الكولونيالية المتهربة من المسؤولية، عندما زار عكا في أعقاب العدوان العنصري. والأنكى من ذلك، أن بيرس حاول تصوير العدوان كأنه صراع ديني، وأن الحل هو من خلال حوار بين الأديان!! كما أن الفرية الرسمية والشعبية والإعلامية الإسرائيلية هي أن العرب الفلسطينيين هم الذين استفزوا مشاعر اليهود، وأن اليهود هم ضحايا السلوك العربي، حتى إن كان التهجير والتطهير العرقي هما سلوك اليهود والضحايا هم العرب. ألا نذكر الرواية الإسرائيلية الأوسع أن النكبة الفلسطينية هي نتاج سلوك الفلسطينيين!!؟

لم يأت المستوطنون من مجندي الخدمة التوراتية العسكرية في "يشيفات هسدير" إلى عكا وفق مخطط مسبق من جانبهم، وإنما أحضرتهم الدولة وبلدية عكا أيضاً، وذلك ضمن مخطط الدولة ("تطوير") تهويد النقب والجليل، والذي شكل عنصراً مركزياً في خطة شارون لفك الارتباط مع غزة. إن هؤلاء المنات الذين أحضروا إلى عكا، وبالذات إلى الأحياء التي أقيمت من أجل اليهود ضمن حل جماعي ومشروع رسمي بلدي حكومي بدأوا يتركونها مفتشين عن أحياء "أفضل"، أي أحياء يهودية صرف وفق المعجم الإسرائيلي، وذلك عندما بدأت تنتقل إليها عائلات عربية بقواها الذاتية وضمن حل فردي لضائقها الفردية والجماعية. وبموازاة ذلك، تم إحضار "طلاب" اليشيفاه الأشبه بالميليشيا، من أجل وضع حد "للزحف" العربي الهارب من ضائقته القسرية ليس إلا. وليس مصادفة أن هذه المجموعات كانت جاهزة نفسياً وميدانياً، وذلك بضمان التغطية السلطوية، من أجل تنفيذ مخطط التطهير العرقي، معتمدة على الشرارة الأولى التي ابتدعتها في ليلة يوم الغفران.

من معالم العنصرية

سنظلم الحقيقة لو حصرنا العنصرية فقط بالمستوطنين من الضفة الغربية وغزة سابقاً، لأن العنصرية الإسرائيلية، كما الكولونيالية، ليستا وليدتي احتلال سنة 1967، أو المشروع الاستيطاني الذي تلاه في الضفة والقطاع، وإنما هما في صميم المشروع الصهيوني، وهما جوهر إسرائيل والمجتمع الكولونيالي من جانبي ما يسمى الخط الأخضر. ومن المفيد أن ننظر كيف يتعامل المجتمع الإسرائيلي مع المستوطن في القدس أو في باقي أنحاء الضفة الغربية، فهو ليس خارج حدود المواطنة الإسرائيلية، وإنما هو تعبيرها الأمين. فهو مواطن يحمل رسالة لا تختلف عن رسالة المستوطن داخل إسرائيل في بلدات كرمئيل أو معالوت أو نتسيرت عيليت (الناصرية العليا)، والتي أقيمت جميعها في الخمسينيات، وحملت الأهداف الديموغرافية ونهج السيطرة ذاتهما، وحتى أسلوب المصادرة للأرض العربية المقامة عليها. وللحقيقة أيضاً، فإن استطلاعات الرأي العام الإسرائيلي تدل باستمرار على أن نحو 70% من الإسرائيليين يؤيدون أو يتفهمون بعض المواقف العنصرية.

أسوق هذا الكلام لمواجهة محاججات عربية ويسارية إسرائيلية في أن المشكلة العنصرية محصورة بالمستوطنين وحدهم، ذلك بأن الذي قام بإحضار المئات منهم إلى عكا من أجل تغيير الميزان الديموغرافي المائل أصلاً، ليس الجيش الإسرائيلي، وإنما الجهاز المدني والإسكاني الإسرائيلي. فالأمن القومي الإسرائيلي ليس مسؤولية الجيش فحسب، بل أيضاً مسؤولية القطاعات الإسرائيلية العسكرية والمدنية كلها، بما فيها القضائية والأكاديمية والاقتصادية والإعلامية والتعليمية وغيرها.

ثم ماذا بشأن التصعيد العنصري الأشبه بفترة الدم العنصرية، وماذا عن شعارات الموت للعرب، والاعتداءات الدموية في المدن الساحلية والمختلطة، والدعوات إلى طرد الفلسطينيين العرب من حيفا ويافا ونتسيرت عيليت (الناصرية العليا) ومعالوت واللد والرملة وكرمئيل، والمصحوبة في العديد منها بمشاريع استيطانية في المدن ذاتها، وفي قلب الوجود العربي فيها؟ إن هذه المشاريع، بطبيعتها، تشبه العنصرية الكولونيالية، وحمولات التطهير العرقي في القدس والخليل وغيرها.

ومن اللافت للنظر، أن العنصرية الإسرائيلية الشعبية، وإن أصبحت تحمل مشروعاً تهجيرياً، فإنها لا تزال في بداية انتظامها، وستكون أخطر كثيراً لو استكملت تنظيم ذاتها جماعياً، أو كمجموعات كبيرة، كما تفعل هذه الأيام. ويجدر بنا أن نأخذ ذلك في حساباتنا الآنية والمستقبلية، ذلك بأن الدلالات كثيرة على حدوث اعتداءات منظمة وفردية يتم إعدادها جهراً وعلانية. ونحن لا نستطيع بعد اليوم أن نقول إن هجمتها المقبلة ستفاجئنا توقيتاً وموقفاً وحملاً، لأن جهوزيتنا يجب أن تكون لهذا النوع من التحدي.

2 - التفاعل الفلسطيني الواسع والعربي الإقليمي

ما جرى في عكا ليس نهاية المطاف، وإنما بداية طوفان عنصري جديد؛ عنصرية الشارع المنظمة والهادفة، وصاحبة المشروع التهجيرى الدموي، والتي ضمنت، عملياً في عكا، ألا يعيقها رادع من الدولة.

وفي نظرة إلى ردة الفعل الشعبية والقيادية والمؤسسية - العربية، لا بد من الإشارة بردة فعل الأهل في عكا، وبتصديهم للهجوم من أجل الدفاع عن النفس وعن الوجود، فالمؤسسات السياسية والأهلية والدينية، من حقها ومن واجبها، أن تحشد الناس وتنذرهم بالخطر الداهم، وأن تدعوهم إلى الدفاع عن وجودهم. بالإضافة إلى ذلك، برز التنادي السريع إلى عكا من جانب قيادات ومنظمات وحركات وأحزاب قطرية من النقب والمثلث والجليل والساحل، كما كان هناك دور بارز للمنظمات الأهلية والحزبية.

إن تحركات وبيانات شعبنا في قطاع غزة والضفة والشتات، ومجيء وفد التضامن من القدس المحتلة، وكذلك أصوات التضامن والمناصرة العربية الإقليمية، ودور الفضائيات والإعلام العربي، أمور كلها ذات دلالات جوهرية، فهي تشدد على التعامل الفلسطيني الشعبي الواسع مع فلسطينيي 48، كجزء من جوهر القضية الفلسطينية، وليس فقط كجزء من الشعب الفلسطيني الذي يستخدمه البعض من باب الوصف لا الموقف. وقد شكّل هذا توجهاً مناقضاً لاتفاق أوسلو وما تلاه من نهج تجزيئي. وهو، أيضاً، تعبير عن التعامل العربي الإقليمي مع قضية فلسطينيي 48، على أنهم ليسوا قضية إسرائيلية داخلية. فالعالم العربي تعامل مع فلسطينيي 48 خارج حدود مواطنتهم، وبشكل يناقض تعامل أنظمتها التي رأت فيهم احتياطياً إسرائيلياً للتأثير في الخريطة السياسية الإسرائيلية، وأن دورهم هو تغليب المركز على اليمين الأكثر تطرفاً، أي من أجل تسهيل مهمات تلك الأنظمة المتعاقسة عن القيام بدعم الشعب

الفلسطيني ومقاومته.

لقد التفتت جماهيرنا في الداخل إلى هذا التحول، كما التفتت إليه إسرائيل التي أخافها هذا المدى الجديد الفلسطيني والعربي لنضال فلسطيني 48، فسعت لقطعه كما فعلت على مدار ستين عاماً. لقد تم التعامل عربياً مع أحداث عكا بصفتها تعكس خطراً وجودياً على الوجود العربي الفلسطيني، وهذا التفاعل ذو أبعاد استراتيجية، ويجب أن ترعاه وتضمن استدامته القوى المعنية كلها، محلياً وإقليمياً.

ومن الجدير بالانتباه أيضاً، أصوات المناصرة والتضامن الدولية، ذلك بأن ما جرى ويجري استثماره منذ أعوام، بوضع قضايا فلسطيني 48 ضمن القضية الفلسطينية وفي المحافل الدولية، بدأ يؤتي ثماره، كما أن حركات التضامن التي كانت تتعامل مع فلسطين على أنها محصورة في الضفة الغربية وقطاع غزة، أصبح لديها خريطة تعامل جديدة تشمل فلسطين كلها.

3 - "التعايش" مرة أخرى

إن التعايش هو مشروع دولة ومؤسسات رسمية وشبه رسمية، وهو خطاب استعلائي عنصري يتطرق إلى سلوك الفلسطينيين العرب وحدهم - أي الضحية، فلم يحدث أن تمت مخاطبة المجتمع الإسرائيلي اليهودي بلغة التعايش، أو أن ربطت السلطة المركزية أو البلدية التعايش أو غيابه بسلوك اليهود. فالتعامل معه يتم على أساس أنه سلوك عربي في "دولة اليهود"، والمقصود هو التعايش معها، لأن الدولة تعتبر نفسها هي اليهود، وبالتالي، فإن كلاً من بلدية عكا ورئيسها تعامل مع ذاته كمثل لليهود، وليس حتى للعرب الذين منحوه أصواتهم في الانتخابات الماضية.

لكن التعايش هو مشروع ترويض أيضاً، وفيه أبعاد لفكرة الأمن القومي الإسرائيلي، لأنه يحدد قواعد سلوكية للعرب لو تجاوزوها لاعتبروا "متطرفين"، وذلك بناء على معادلة التطرف والاعتدال التي لا تقيس إلا سلوك العرب وموقفهم من الدولة وقواعد لعبتها.

وفي هذا الصدد، نتوقع تصعيداً عنصرياً شعبياً ضد الوجود العربي في عكا وفي مدن أخرى، كما نتوقع "هجوم" التمويل اليهودي الصهيوني المنظم والهادف إلى إعادة العرب إلى قواعد اللعبة الإسرائيلية الجديدة كي يقبلوا بواقعهم وبالبدائل الاستسلامية بما فيها المسعى للتسليم ببقاء العائلات المهجرة في عكا خارج بيوتها التي أحرقتها نار العنصرية في عام النكبة الستين.

إن القمع السلطوي، وعنصرية الشارع الإسرائيلي، وأموال المنظمات الصهيونية، أمور هدفها واحد ومتكامل هو فرض الواقع الجديد، وإخراج أهالي عكا العرب وجماهيرنا من معادلة الصراع الحقيقية التي تجلت في عكا.

4 - تدارك نقاط ضعف

على الرغم من نقاط القوة كلها، فإن العمل الجماعي الفعلي غاب في عكا على المستوى القيادي. فعلى سبيل المثال، لا يزال غياب لجنة المتابعة العليا للجماهير العربية كهيئة موحدة، أمراً مستغرباً، مع أن ثمة من برر ذلك بالحكمة وعدم الرغبة في التصعيد. ولو عقدت هذه اللجنة موحدة في عكا للدفاع عن المدينة، لاختلف حضورها عن حضور مركباتها كل على حدة. وبموازاة غياب هذه اللجنة، فإن القيادات الوطنية السياسية والدينية من القدس المحتلة تظاهرت جماعياً، وكانت ذات حضور معنوي مهم جداً، كما أن اجتماع اللجنة الشعبية للدفاع عن الحريات في عكا خلال الأحداث، شكل أيضاً عملية شحن معنوي متبادل مع العكيين. وتاريخياً، فإن كلاً من الحركة الصهيونية وإسرائيل اعتمد مبدأ الاستفراد وضمان ردة فعل عربية موضعية، وهذا ما نادى به قائد الشرطة العام الذي كرر عدة مرات أن أحداث عكا محلية، فهو يريد أن يراها هكذا.

وهنا، لا بد من الإشارة إلى الصوت والخطاب الإعلاميين والمعنويين، وإلى وجود بعض الأصوات العربية المحلية التي تساوقت إلى حد ما مع الادعاء أن الهجمة العنصرية جاءت كردة فعل على السائق العربي الذي دخل الحي الشرقي، والتي روّجت لفكرة الاعتذار التي فرضها العنصريون وفرضتها الدولة والإعلام العبري. وهذا أيضاً أثر في لهجة بعض الفضائيات العربية عند نقله الصورة، ففكرة اعتذار العرب هي تجريم للضحية وتبرئة للمجرم، وهي ضمن الخطاب الاستعلائي الموجه إلى العرب وحدهم، والذي ينال من كرامتهم الفردية والجماعية. وقد علمتنا تجربة الصراع في الوطن، وعلى الوطن، أن التراجع ليس هو ما يردع العنصريين وعنصرية الدولة، بل إن ما

يردعهما هو مواجهتهما بأدوات كفاحية. ونحن نتوقع المزيد من الملاحقة السياسية، وكذلك تصنيفنا إلى "متطرفين" و"معتدلين"، كما نتوقع المزيد من الهجمات العنصرية التي قد تكون شرارتها مناسبات خاصة مثل يوم الغفران، وأيام الذكرى الخاصة بجنودهم، وغير ذلك من مناسبات وطقوس الموت الإسرائيلي.

مهمات ملحة

إن المهمة الأكثر إلحاحاً على مستوى كل من القيادة المحلية في عكا والقطرية، هي ضمان عودة العائلات المهجرة إلى بيوتها، وحمايتها من دون التفتيش عن حلول بديلة، لأنه، في حال تراجعنا في هذه المعركة، نكون قد سلّمنا بتحقيق العنصريين هدفهم، وبكون التطهير العرقي ممكناً.

إن دعم الصمود العربي في عكا وتعزيزه، هو تدعيم للوجود العربي في المدينة، وفي أنحاء الوطن كافة. ومع أننا رأينا كثيراً من هذا، إلا أنه من الضروري الاستمرار بالدعم والمناصرة الهادفين، سواء على صعيد الحياة الثقافية أو الاقتصادية أو السياسية والمؤسسية.

وإذا كان هدف المشروع العنصري الذي تجلى في الشارع في إبان تلك الأحداث، هو التخلص من الوجود العربي في الأحياء ذات الأغلبية اليهودية، فإن مشروع كل من بلدية عكا والدولة وشركة عميدار الاستيطانية هو ابن الستين عاماً، وهدفه تفريغ البلدة القديمة من أهلها، وتهويدها بمساعدة رأس المال اليهودي العالمي. إن إنقاذ مرافق وبيوت عكا التاريخية هي مسؤولية شعبنا الفلسطيني كله في الوطن وفي الشتات.

وهناك جانب جوهري آخر يتمثل في رفع مستوى الجهوية الجماهيرية القيادية والمؤسسية والشعبية إلى أعلى الدرجات الممكنة، فالهبة العنصرية الإسرائيلية الشعبية والرسمية تستهدف الوجود العربي الفلسطيني في المدن الساحلية والمختلطة، وهي لن تتوقف عند هذا الأمر إذا ما شعرت بإمكان تحقيق المزيد. وهذا النهج الاقتلاعي التهجيري لن يرتدع إلا بتصدينا له جماعياً، فجماهير شعبنا تملك طاقات أكبر كثيراً مما هو موجود ضمن مختلف الأطر، كما أن معالم الهجمة واضحة، وكذلك مخاطرها. إن الأفكار القائلة بعقد مؤتمر وطني، وبوضع خطة عمل لحماية وجودنا في وطننا، هي لسان حال شعب يريد الحياة. ■

(*) كاتب فلسطيني من عرب 48.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx